أساليبُ الاسْتفهامِ في القُرآنِ الكريمِ وَدلالاتُها

Interrogative methods in the Holy Qur 'an and their implications

* د. محمد إبراهيم محمد شريف

Abstract

The knowledge of eloquence has particular importance in Arabic language. It is the mean of learning and we can separate meaningful and polite words from non-sense. It is the best mean to evaluate/assess someone's words and despit it, it was the best mean to realize on the miracle, interpretation and arrangement of holy Quran. therefore, many scholars such as; Zamakshary related the comprehension of holy Quran to the knowledge of eloquence.

Holy Quraan has various letters. Such as; الیّ *and* همزه، هل، من، ما، ایّ، این، امّان، کم، کیف *and these rules and equations are plainly related with the knowledge of eloquence.*

For example Hamza – "همزه" is used to ask question about singular person. Vice verca, "هل" *letter is only used to ask question and as well as for the meaning of sentences. If we look we look at the usage carefully in Quraan it will be hard to find out that they have been used for their real meaning. We will find that in many places that the second meaning of eloquence has been divided from it.*

Sentences. Sign and symbols are necessary to comprehend on the exact meaning of eloquence. The main and significant methods that have been used in holy Quran which indicate the meaning of eloquence are as follow:

Make/force second person to speak, deny/reject, humiliation, threat, jokes, motivation, astonishment, blame, hope, order, prohibition, negation of pray, repentence remove, hire and adjustment between two things.

Applicable examples for the mentioned meanings exist in the verses of holy Quran.

I hope that this article will be the most effective maen for those who explore the methods/ways of holy Quran.

Keywords:*The knowledge of eloquence, Interrogative methods, implications*

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علّمه البيان، وفضّله على الخلق بالعقل والنّطقِ باللسان، وأنزلَ القرآن ليكون نورا وهدى وطريقا إلى الجنان، وحجّة على من أعرض عنه وصدفَ عن الإيمان، والصلاةُ والسلام على محمد بن عبدالله العدنان، الذي أوتي جوامع الكلم ووضوح البيّنة والبرهان، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فإنّ علم البلاغة يحتلّ من علوم العربية محلّ اليتيمة من قلائد العقيان، ومحلّ الرأس من الإنسان، لأنه يميّز السمين من غث الكلام، ويبرّز الخطيب على الأنام، وعليه يعتمد في تفضيل شاعر على مثيله، والحكم لأديب على نظيره، وهو حلية الكلام، وزمامه إلى المرام، وحسبنا أنّه أداة معرفة نظم القرآن، ووسيلة لدرك إعجاز القرآن، وكشّاف نكته اللطيفة، وأسراره الدقيقة، لايتم التوصل إليها إلا بالبراعة في هذا العلم، والتضلع بغيره مما يسانده من العلوم، فلا عجب أن نجد بعض العلماء يشترط لمعرفة لطائف القرآن الكريم وأسراره البراعةَ في علمي المعاني والبيان؛ إذ الفقيه وإن فاق على أقرانه في الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن غلبَ على جميع الناس في صناعة الكلام، وحافظُ القصص والأخبار وإن كان أحفظ البريّة، والواعظ وإن كان أوعظ من الحجّاج، والنحويّ وإن كان أعلم من سيبويه، واللغويّ وإن برع في إحصاء اللغات، لا يتمكّن أحدٌ منهم من فهْم تلك اللطائف، ولا يدرك شيئا من تلك الحقائق، إلا من

* الأستاذ المحاضر بجامعة سلام، كابل، أفغانستان.

قد أتقنَ ذانك العلمين المختصّين بالقرآن، أعني علم المعاني وعلم البيان، بعد أن يكون قد ألمّ بسائر العلوم وجمعَ بين تحقيقٍ وحفظٍ، وكان مع ذلك سهل الطبيعة ومنقادها، يقظ القريحة وقّادها، قد علم كيفية ترتيب الكلام وتأليفه، وكيفية نظمه و رصفه إن اضطرّ إليه، ووقع في مزالقه[1].

إن (الاستفهام) يعدّ من أدق مباحث الإنشاء وأجملها، ومن أغرز قوالب المعنى وأرقّها، يضمّ ليونة اللفظ مع استعلاء الطلب، وتجاوزتْ أدواته على العقد في كلام العرب، يُستعمل للمعنى الموضوع له حينا، ولغيره حينا آخر، وهو يحظى بخصائص موضوعيّة، كما يتمتّع بخصائص دلالية وأسلوبية، وقد امتازَ بالشيوع والانتشار كامتيازه باللطائف والأسرار، و خاصة في أعظم نموذجٍ للكلام العربي وأبلغه، وهو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه؛ إذ جعله هدى للناس وشفاء لما في الصدور، وتبيانا لكل شيء.

نعم، إن أساليب الاستفهام متعددة، وإيحاءاتها ثرّة متنوعة، تتنوّع بتنوّع أدواتها وسياقاتها، وتتبيّن بتتبّع استعمالاتها، فلكلّ أداة مقام، ولكل أسلوبٍ مجال، فالهمزة تمتاز من غيرها بخصائص لفظية ومعنوية، وتصلح للاستفهام عن المفرد، وعن النسبة الخفيّة، و(هل) تختصّ بالسؤال عن النسبة التامّة، وتنفرد بخصائص عديدة على أخواتها العامّة، وأمّا ما عداهما من الأدوات فيُستفهم بها عن المفردات، ويُسأل بها عن شيء خاصٍ وملابساته، وأحوالهِ ومتعلّقاتهِ، و(مَنْ) لطلب تعيين ذي العقل، و(ما) لشرح الاسم أو ماهية المسمّى للسائل، واختصّت(أي) في باب الاستفهام لتمييز أحد المتشاركين في أمر عامّ، وانفردت (أين) للاستفهام عن المكان، و(متى) و(أيّان)عن الزمان، وكانت(كم) عن العدد في السؤال، و(كيف) يُسأل بها عن الحال، وترددت(أنّى) في الاستفهام بمعنى(كيف) و(من أين) أو(متى) بدلالة المقام على ما نتطرق إليه في هذا البحث بإذن الله تعالى.

فإذا انتقلنا إلى أساليب الاستفهام الواردة في القرآن الكريم، وجدنا أنها في الغالب خرجت عن معانيها الأصلية، إلى أسرار وأغراض بلاغية جديرة بدراسة علمية، نقوم بدراستها وتوضيحها بأمثلة عديدة وبصورة موجزة من خلال هذا البحث الذي يشتمل على تمهيد ومبحثين:

التمهيد: تمييز المعنى الأصلي من المعنى المجازي لأسلوب الاستفهام:

إن الخوض في غمار بحر القرآن الكريم وفهم أساليبه الاستفهامية ليس بالأمر الهيّن؛ لأنه كلام الله العليم، و الذكر الحكيم، كلام من لا تدرك حقيقة ذاته، أنزله دستورا لخلقه إلى قيام الساعة، فلا بدّ أن يكون نظمه من نوع خاصٍ يصلحُ لجميع الناس في جميع الأماكن والأزمان، ولذا امتازَ أسلوبه من الكتب السماوية السابقة، فمزج بين الفكر وبين أجناس الكلام؛ إذ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة، فمنْها البليغُ الرصين الجزل، ومنها الفصيحُ القريب السهل، ومنها الجائز الطّلق الرسل، وهي أقسام الكلام المحمود، فحازت بلاغات القرآن من كلّ قسْم حصّة، وأخذت من كلّ نوع شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمطٌ من الكلام، يجمعُ بين صفتي الفخامة والعُذوبة، وهما على الإنفراد كالمتضادين، فكانَ اجتماع الأمرين فضيلة خُصّ بها القرآن، وإنّما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأنّ ما يقوم به الكلام من اللفظ الحامل، وما به من المعنى القائم، والرباط الناظم، قد وُجدتْ في غاية الشّرف، فليس هناك لفظٌ أفصحَ ولا أجزل ولا أعذبَ من ألفاظه، ولا نظمٌ أحسنَ سبكا وأشدّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه، ولا معنى أفضل وأجودَ وأرقى من معانيه، ولم توجد هذه الفضائل مجموعة إلا في كلام العليم القدير الذي أحاطَ بكلّ شيء علما وأحصى كلّ شيء عدد[2].

إنّ أساليبَ الاستفهام القرآني من حيثُ ما يُراد بها نوعان: نوعٌ أريد به المعنى الحقيقي للاستفهام، وآخر أريد به معنى بلاغي يدلّ عليه السّياق وما أحيطُ به من القرائن.

فالنوع الأول:

وهو الاستفهام الذي أريد به المعنى الحقيقي، وهذا النوع لوضوحه لا يحتاجُ إلى البسط؛ لذا نبيّنه ببعض الأمثلة التطبيقية، ثمّ نعرّج على النوع الثاني بشيءٍ من التفصيلات الموجزة إن شاء الله تعالى.

فمن استعمال الهمزة للمعنى الحقيقي قوله تعالى:{قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} [البقرة:140]

ومن المعلوم أن الهمزة تمتاز من أخواتها بإفادتها أحد المعنيين:

1. طلب التصور، أو إدراك المفرد، فإذا قيل: أأنت كتبت المقال أم أخوك؟ معناه: أيّكما كتب؟ أي كتابة المقال معلومة، لكنّ الكاتب مجهول، فالسائل يريد تعيين الكاتب، فيسأل هل هو المخاطب أم أخوه؟ والمخاطب يجيب بتعيين الكاتب، فيقول: أنا، أو يقول: أخي، ولا يقول: نعم، أو: لا.
2. طلب التصديق، أو إدراك النسبة، نحو: أحفظتَ القرآن الكريم؟ أي أنّ السائل يريد أن يعرف هل المخاطب حفظ القرآن الكريم أم لا؟ فالمخاطب يجيب: بنعم، أو: لا.

فعلى ما تقدّم استُعملتْ همزة الاستفهام في الآية لطلب التصور أو المفرد، ذلك أنّ الله تعالى لما أنكرَ على أهل الكتاب ادّعاءهم أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وأحفادهم كانوا يهودا أونصارى، أمرَ نبيّه محمدا ﷺ أن يسألهم عن الأعلم بديانة هؤلاء الرسل، هل هم الأعلم بها أم الله؟ وقد شهد الله لهم بالإسلام و برّأهم عن اليهودية والنصرانية، قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران:66]

ومن أمثلة مجيء الهمزة للاستفهام الحقيقي قوله تعالى: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}؟ [البقرة:30] فوردت الهمزة في الآية لطلب التصديق أو إدراك النسبة، أي أنّ الملائكة أرادوا طلب العلم بالحكمة عن جعل الله الخلافة في بني آدم، لا الاعتراض على الله ولا الحسد لبني آدم؛ لأن الملائكة عباد مكرمون {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[التحريم:6] فحاشاهم أن يعترضوا على ربّهم أو يحسدوا بني آدم، بل سؤالهم للاستعلام والاستكشاف عن الحكمة في جعل الله تعالى الخلافة في بني آدم فكأنهم يقولون: ما الحكمة في خلق بني آدم مع أنّ بعضهم يفسد في الأرض؟[3].

ومن استعمال (هل) للمعنى الحقيقي قوله تعالى: {فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ}[الأعراف:44] فأداة"هل" في باب الاستفهام تستعمل لطلب التصديق فقط، فإذا قيل: هل زرت مكّة؟ فالسائل يريد أن يعرف هل وقع من المخاطب زيارة لمكّة المكرّمة أم لا، فما على المخاطب إلّا أن يقول: نعم، أو: لا.فعلى ما سبق" هل " في الآية سؤال من أهل الجنّة يخاطبون به أهل النار ويسألون عنهم طالبين التصديق: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فيجيب أهل النار: نعم.

ومن ورود (مَن) للاستفهام الحقيقي قوله تعالى: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى}[طه:49] حيث تستعمل "من" الاستفهامية لطلب التصوّر لذوي العقول، فإذا قيل: من حضر؟ فالسائل يريد تعيين الحاضر، فما على المسؤول إلّا أن يعيّنه، فيقول: خالد مثلا، فحرف "مَنْ" في الآية الكريمة تفيد ما ذكر، وذلك أن الله تعالى لما أمر موسى وأخاه هارون

عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الحق، فذهبا إليه ودعياه إلى توحيد الرّب سبحانه وتعالى، فسألهما فرعون عن ربّهما قائلا: من ربّكما يا موسى؟ فكأنّه قال: أعرف أنّ لكما ربّا فمن هو؟ أنا أم غيري؟

ومن استعمال (أيّ) للمعنى الحقيقي قوله تعالى:{فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[الأنعام:81] ومن المعلوم أن "أيّ" تستعمل لطلب التصور عمّا تضاف إليه من شخص أو مكان أو زمان أو غيرها؛ فإذا قيل: أي شخص جاء؟ أي من جاء؟ وإذا قيل: أي مكان تجلس؟ أي أين تجلس؟ وإذا قيل: أي يوم تسافر؟ أي متى تسافر؟ وهلمّ جرّا، فحرف"أيّ" في الآية استعمل لطلب تعيين أحد المتشاركين في أمر يعمّهما، ذلك أنّ إبراهيم عليه السلام سأل قومه عندما ناظرهم في توحيد الله تعالى، فذكر لهم توحيده لله وإشراكهم به سبحانه وتعالى ما لم ينزّل به سلطانا، ثمّ سألهم عن الفريق المستحق بالأمن من العذاب، وقال: فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن ؟ أي أ أنا أحق بالأمن أم أنتم؟

والنوع الثاني:

وهو أسلوب الاستفهام الذي أريد به معنى بلاغي يدلّ عليه السياق وما أحيط به من القرائن، وهذا النوع من الأسلوب في القرآن الكريم كثير، يحتاج إلى دراسات طويلة، وها أنا أبيّن بعضا من المعاني البلاغية المهمّة التي تدلّ عليها أساليب الاستفهام القرآنية بحول الله تعالى وتوفيقه:

المبحث الأول: المعاني البلاغية لأساليب الاستفهام بالحروف:

ذكر العلماء والبلاغيون معاني كثيرة تفيد أساليب الاستفهام بالحروف في القرآن الكريم، أشهرها وأبرزها ما يلي: التقرير، والإنكار، والتوبيخ، والوعيد والتهديد، والتهكم، والتحقير، والتحضيض، والتمني، والأمر، والنهي، والدعاء، والنفي، والتعجّب أو التعجيب، والعتاب، والتبكيت، والتسوية بين الشيئين، وإليكم النماذج التطبيقية على بعض الآيات القرآنية:

أولا: نماذج لأساليب الاستفهام بالهمزة:

قال الله تعالى:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا}[الأعراف:172]. يذكّرنا الله تعالى بالميثاق الذي أخذه من بني آدم لما أخرج من صلبه ذرّيته، ونثرهم بين يديه، ثمّ كلّمهم وقال لهم: ألست بربّكم؟ فقالت الذرّية: بلى، شهدنا، أي بلى، أنت ربّنا ونحن نشهد بذلك، فالاستفهام في الآية تفيد التقرير وهو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه[4]، والدليل على أنّ الاستفهام للتقرير جواب الذرّية بـ" بلى"؛ لأنّها تدلّ على نقيض المستفهم عنه، كما إذا أراد أحد أن يقرّر مخاطبه على إحسانه إليه، فيقول له: ألم أحسن إليك؟ فإذا أجاب المخاطب بـ" بلى" فقد أقرّ بالإحسان إليه، وإذا أجاب بـ"نعم" فقد أنكره.

وقوله سبحانه:{قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة:80]، فصدر هذه الآية يحكي ادعاء لليهود، وهو:أن النار لن تمسّهم إلا أياما معدودة، ولما كان ادّعاؤهم مجرد كذب أمرَ الله تعالى نبيّه ﷺ أن يطالبهم بالدليل، و بهذا الأسلوب الذي يبكّتهم ويفضحهم:{قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا} فقد طلب منهم الإقرار والاعتراف ببيان الادعاء، والمعلومُ عند الجميع أنهم متقوّلون على الله تعالى بلا علمٍ، ورغم ذلك جاء الاستفهام مجيء المتردد فيه، ليكون أخفّ وقعا في الدخول إلى الحوار معهم، ولهذا كان الاستفهام للتقرير مع التوبيخ على ادعائهم والتبكيت لهم.

وقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[البقرة: 170].حيث ذكر الله تعالى في هذه الآية حماقة الكفرة من اليهود أو المشركين، وهي أنهم إذا دُعُوا

إلى اتّباع ما أنزل الله تعالى، قالوا: بل نتّبع ما وجدنا عليه الآباء والأجداد، فأنكر الله تعالى عليهم تقليدهم الأعمى، ووبّخهم به، وعجّب السامع من حالهم، فقال:{أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} أي أيتّبعونهم ولو كان أباؤهم جهلة وضالّين؟ فالاستفهام يفيد الإنكار لاتّباع الآباء والتوبيخ عليه والتعجيب من حالهم.

وقول الله سبحانه وتعالى مخاطبا نبيّه:{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[البقرة:6]

كان النبي ﷺ حريصا على دعوة الناس إلى توحيد الربّ سبحانه، وكان يبذلُ جهوده ليقرّوا بكلمة التوحيد ويدخلوا في دين الله تعالى، فأخبره الله سبحانه أن الكفرة الذين لم يسبق لهم السعادة من ربّهم إنذارُك وعدمُ إنذارك عندهم سيّان، فلا تحزنْ على عدم استجابتهم لدعوتك؛ لأنّهم ليسوا أهلا للانتفاع بالإنذار، {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}[يس:11] فالظاهر أنّ الاستفهام يفيدُ التسوية ويتضمّن تسلية للنبي ﷺ وتحريضه على الدعوة.

وقول الله عزّ وجلّ:{وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ}[الأنبياء:36] ذكر ابن عطية أنّ سبب نزول الآية هو أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام اللذان رأيا رسول ﷺ في المسجد، فاستهزآ به فنزلت الآية[5].

فإذا تعمّقنا في الآية وأسلوبها مع سبب النزول، وجدنا صدرها اشتملت على (إذا) الظرفية المتضمّنة لمعنى الشرط، فهي تدلّ على أنّ المشركين المتغطرسين إذا رأوا الرسول ﷺ في المسجد الحرام، وهم جالسون في ناديهم، استهزأوا به وحقّروه، وذلك وقت أن كان النبي ﷺ والمسلمون بمكّة ضعفاء، لا ناصر لهم إلّا الله تعالى، والمشركون معجبون بعِدّتهم وعُدّتهم، ومخدوعون بآلهتهم الباطلة، وأسكرتهم أهواؤهم الذائغة، وأحمقتهم عقولهم الكاسدة، حين ذاك إذا رأوا النبي ﷺ أقبل إلى المسجد، أو رأوه فيه، قال بعضهم لبعضٍ دفاعًا عن آلهتهم واستهزاء و تحقيرا ـ والعياذ بالله ـ له عليه الصلاة والسلام: أهذا الذي يعيب آلهتكم وينتقصها؟ أي أنّ الاستفهام للتحقير والاستهزاء.

وقال الله سبحانه: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}[هود:87].

فأخبر الله تعالى أنّه أرسل شعيبا إلى أهل مدين، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الأصنام، ويأمرهم بمراعاة القسط في المكيال والميزان، لكن القوم وقفوا دون دعوته، وجادلوه بالباطل، وأنكروا الوحي، وبالغوا في ذلك حتّى بلغوا أقصى مراتبِ الخلاعة والمجون والضلال حيثُ لم يكتفوا بإنكار الوحي الآمرِ بذلك بل ادّعَوا أن الذي يدعو إليه بعيدٌ عن العقل واللُّب أصلاً وأنّه من أحكام الوسوسةِ والجنون، وعلى ذلك بنوا استفهامَهم وقالوا بطريق الاستهزاءِ: أصلاتُك التي هي من نتائج الوسوسةِ وأفاعيلِ المجانين تأمُرك بأن نترك عبادةَ الأوثانِ التي توارَثْناها أباً عن جد؟ أصلاتك تأمرك أن نترك؟ { أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَآءُ} من الأخذ والإعطاءِ والزيادةِ والنقصِ على ما يروق لنا[6]، أي أنّ الاستفهام كما بيّن يفيد التهكم والاستهزاء بالنبي شعيب عليه الصلاة والسلام.

وقال الله تعالى:{فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}[الأنعام:20]

ذكر الله تعالى قبل هذه الآية أنّ الدين المرضيّ الحقّ عنده هو الإسلام، وأنّ أهل الكتاب اختلفوا بعد ما جاءهم العلم بغيا وحسدا وطلبا للرياسة بينهم، فأمر نبيّه محمدا ﷺ في هذه الآية إذا خاصَمه أهل الكتاب وجادلوه أن يقول لهم: إننا أسلمنا لله وانقدنا له، وأنتم قد حصل لكم من العلم ما يوجبُ الإسلام ويتطلّب حصوله، فهل أسلمتم أم ما زلتم

مصرّين على كفركم؟ فالاستفهامُ يفيد الأمر وهو الذي ذهب إليه الفرّاء[7]، لكنّه مع ذلك يتضمّن تعيير المخاطب على معاندته وتهديده عليها، ذلك أنّ الله تعالى أبانَ الحجّة للمخاطبين، وأزالَ عذرهم، فلم يبقَ لهم سبب في العناد والمخالفة، ومع ذلك إذا كانت مطامع الدنيا تقف دون إسلامهم وإذْعانهم فهم أهلٌ للتعيير والتهديد، فلينتظروا مصيرهم: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}[الأنعام:20]

وقال الله سبحانه:{أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[التوبة:13]

حثّ الله تعالى في صدر هذه الآية المؤمنين على قتال قوم نكثوا العهد، وهمّوا بإخراج الرسول، وبدأوا القتال معهم فقال سبحانه مخاطبا المؤمنين: أتخشونهم في ترك قتالهم؟ فالله أحقّ بالخشية إن كنتم مؤمنين.

فالاستفهام في الآية الكريمة يفيد النهي، أي لا تخشوا هؤلاء المشركين فتتركوا قتالهم، واخشوا الله؛ فإنه الجدير بأن تخشوه وتقبّلوا أمره بقتالهم، إن كنتم تَدّعُون الإيمان الذي يقتضي الخضوع لله، والامتثال لأوامره، وهو القدير على كلّ شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقال الله تعالى:{قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}[آل عمران:15] سبق هذه الآية قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ}[آل عمران:14].

فقد ذكر الله تعالى في تلك الآية ما زيّنه للناس من النساء والبنين والقناطير المقنطرة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ابتلاءً واختبارا لهم، وأخبر أنّ كلّ تلك الأشياء من متاع الدنيا، وأنّه ادّخر عنده ما لم يره أحد لمن جعل همّه رضوان الله تعالى، وسعى لآخرته، ثمّ خاطب نبيّه محمّدا ﷺ في هذه الآية آمرا إيّاه بأن يعرض على الناس ما هو خير من تلك الأمتعة ويشوّقهم إليه.

فالاستفهام للتحريض والتشويق لاشتماله على ما يفيد ذلك {بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ } أي إذا كنت تهتمّ أيّها المخاطب بما هو خير لك من تلك الأشياء السابقة، فاستمع لما يعرض لك، وهو أنّ الله تعالى أعدّ للمتقين من عباده الذين لا يتجاوزون حدود الاستفادة من ملذّات الدنيا جنّات تجري من تحتها الأنهار، فإذا دخلوا خلّدوا فيها، وأنّه سبحانه أعدّ لهم أزواجا مطهّرات من العيوب والأمراض، ويدركون مع تلك النعم نعمة كبيرة أخرى وهي رضوان من الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال ابن عاشور: "والاستفهامُ للعرض تشويقا من نفوس المخاطبين إلى تلقّي ما سيقص عليهم"[8].

وقول الله تعالى:{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}[هود:72]

شرع الله تعالى الازدواج بين الناس، وجعل مقاربة الرجل امرأته سببا للتناسل، وقد ثبت بالطبّ ثمّ بالعرف أنّه ليس كلّ مقاربة بين الزوجين يؤدّي إلى حمل و ولادة، فقد تُوجد مشكلة في الزوج أو الزوجة تحول دون حمل المرأة، كضعف الحيوانات المنويّة لدى الرجل، أو عدم سلامة البويضات لدى المرأة أو غيرها، ثمّ إنّ الحمل والولادة يتطلّبان حدّا للعمر، وهو عدم وصول الزوجين أوأحدهما سنّ اليأس، كتوقّف الدورة الشهرية للمرأة، أوبلوغ الرجل الشيخوخة، كما تدلّ عليه هذه الآية التي وردت في سياق قصّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ذلك أنّ الملائكة لما جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام، فبشّروا امرأته بإسحاق عليه السلام، فتعجّبت هي من تلك الولادة، واستبعدتها بالنسبة إلى أحوالها وأحوال زوجها، لا بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لأنّها كانت عجوزا وكان بعلها شيخا، فالاستفهام للاستبعاد والتعجّب، والدليل على ذلك أنّها قالت: {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [هود:72]

ثانيا: من نماذج أساليب الاستفهام بـ(هل)

قال الله تعالى:{قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ}[يوسف:64]. هذه الآية وردت في سياق تسلسل الحوادث لقصّة يوسف عليه السلام، وهي أنّ يعقوب عليه السلام أرسل أبناءه إلى مصر ليميروا أهلهم، فلمّا ذهبوا إليها، والتقوا بأخيهم يوسف، عرفهم وهم لم يعرفوه، فلمّا جهّزهم بجهازهم طلب منهم أن يأتوا بأخيهم الذي من أبيهم بنيامين، فلمّا رجع الأبناء إلى أبيهم، طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم، ليكتالوا بسببه ما يريدون، وهم سيراقبونه ويحفظونه، فقال لهم أبوهم:{ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ}[يوسف:64] أي: لا أأْتمنكم عليه إلا كما أمنتكم على شقيقه يوسف من قبل، فخنتم الأمانة فأخاف أن تتكرر منكم الخيانة كذلك.

فالظاهر أنّ الاستفهام للإنكار والنفي بدليل ورود أداة الاستثناء(إلّا) بعدها، ولهذا قال الألوسي: (هل) استفهام إنكاريّ [9].ويتضمّن الخوف والإشفاق على بنيامين بأن يخونوا عهدهم في حقّه كما خانوا ميثاقهم في حقّ أخيه يوسف عليه الصلاة والسلام.

وقال الله تعالى:{قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}[الكهف:66]. أمر الله تعالى نبيّه موسى عليه الصلاة والسلام أن يسير إلى مجمع البحرين، إلى مكان يلتقي فيه بعبد صالح من عباد الله، وهو الخضر عليه السلام، كي يتعلّم منه، فسار مع فتاه إلى حيث التقى بالخضر عليه السلام، فعرض عليه المصاحبة والتعلّم منه، وقال له: هل أسير معك على أن تعلّمني مما علّمك الله ما هو رشاد إلى الحق؟ كان موسى طالب علم حريص يبحث عن أستاذه بكلّ شوق حتّى وجده، فاستدعى موقفه أن يتلطّف له في طلبه بأسلوبٍ يتمكّن به إلى الوصول إلى بغيته، فاستعمل الاستفهام الدال على العرض والرفق في الطلب، ولهذا قال ابن عاشور: "والاستفهام مستعمل في العرض، بقرينة أنّه استفهام عن عمل نفس المستفهم"[10].

وقال الله عزّ وجلّ:{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا}[التوبة:127]. هذه الآية الكريمة تكشفُ لنا موقفا من مواقف المنافقين، وهو أنّهم كانوا مرضى النفوس، لايتحمّلون نزول الآيات، وعلى الأخصّ الآيات التي تظهر نفاقهم وعوارهم، ولهذا إذا ضمّهم مجلس الرسول ﷺ والمؤمنين، وصادفهم نزول الوحي، وأنزل الله تعالى سورة فيها عيبهم لم يتحمّلوا سماعها، فينظر بعضهم إلى بعض للتواطؤ على الهروب إذا استطاعوا، ويقول بعضهم لبعض إيماء:{ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ}[التوبة:127]. أي يقرّره بعدم رؤية المؤمنين إياهم؛ إذ المؤمنون مشغولون بالاستماع للنبي ﷺ، فالفرصة متاحة لانصراف هؤلاء المنافقين، فينصرفون فدعا عليهم بأن يصرف الله قلوبهم فلا يدخل فيها إيمان أصلا.

فالظاهر أنّ الاستفهام يفيد التقرير ويتضمن إشفاق المنافقين وخوفهم من رؤية المؤمنين هروبهم من مجلس الرسول ﷺ.

وقال الله جلّ شأنه: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}[المائدة:91].

ذكر الله تعالى في هذه الآية أنّ الشيطان بالاستفادة من بعض الوسائل يفسد الحياة على الإنسان، فإنّه يجمّل له شرب الخمر ولعب الميسر، ويوقع بهما العداوة والبغضاء بين الناس، ويصدّهم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو بهاتين الوسيلتين يغلق أبواب الخير على الناس ويفتح أبواب الشرّ لهم، فإذا كان الإنسان عاقلا ، وقد جاءته البيّنات الدالّة على لزوم الانتهاء من شرب الخمر ولعب الميسر، فلينته عنهما، فالاستفهام للأمر بالانتهاء، والتهديد من الاستبطاء في ذلك.

المبحث الثاني: المعاني البلاغية لأساليب الاستفهام بالأسماء:

بالتتبع فيما ذكره العلماء نجد أنّ هناك معاني كثيرة تفيدها أساليب الاستفهام بالأسماء في القرآن الكريم، أشهرها وأبرزها ما يلي: التقرير، والإنكار، والتوبيخ، والوعيد والتهديد، والتهويل، والاستخفاف والتحقير، والتحضيض، والتمني، والتحسر، والاستبعاد، والاستبطاء، والدعاء، والنفي، والتعجّب أو التعجيب، والعتاب، وإليكم النماذج التطبيقية على بعض الآيات القرآنية:

أولا: من نماذج أساليب الاستفهام بـ(مَنْ):

قال الله تعالى:{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ }[البقرة:130].ذكر الله تعالى قبل هذه الآية أنّ إبراهيم بنى مع إسماعيل عليهما الصلاة والسلام البيت، وأنّه دعا في حقّ ذرّيته بأن يجعلهم الله أمّة مسلمة، وأن يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم أيات ربّهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، فأخبر في هذه الآية أنّ إبراهيم الذي اصطفاه ربّه في الدنيا وهو في الآخرة من الصالحين، لا يرغبُ أحد عن ملّته إلّا إنسان سفيه النفس وذليلها مثل اليهود والنصارى الذين أعرضوا عن ملّته.فالاستفهام للإنكار والنفي، والدليل على ذلك اشتماله على(إلّا) الاستثنائية، أي ما يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا سفيه، والتنصيص بسفاهة نفس المستثنى يدلّ على توبيخ الراغب عن تلك الملّة.

وقال الله جلّ شأنه: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً }[البقرة:245].

أمر الله تعالى المؤمنين قبل هذه الآية بالقتال في سبيله، ثمّ حثّهم في هذه الآية على الإنفاق في ذلك السبيل، فقد جعل الإنفاق في سبيله قرضا حسنا، ووعد المقرض بأضعاف كثيرة من الأجر، فكأنّه قال: أيقرض الله أحد بالإنفاق في سبيله، فيضاعفه الله تعالى أجره أضعافا كثيرة.

فالاستفهام كما يدلّ عليه ظاهر النصّ يفيد تحضيض المؤمنين وتحريضهم على الإنفاق في سبيل الله تعالى.

قال الله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}[الأنعام:63]

أمر الله تعالى نبيّه محمدا ﷺ أن يخاطب المشركين مستفهما إياهم، وقائلا لهم: من ينجّيكم ويوصّلكم إلى شاطئ الأمان من ظلمات وشدائد البرّ والبحر إذا غشيتكم؟ من ينجّيكم من تلك الأهوال التي تدعون وقتها ربّكم تضرّعا وخفية، وتقولون: لئن أنجانا من هذه الشدائد لنكونن من الشاكرين المؤمنين.

فالاستفهام يفيد التقرير ويتضمّن توبيخ المشركين وتوقيفهم على سوء فعلهم، أي أمر الله تعالى نبيّه أن يقرّر المشركين على من ينجّيهم من أهوال البرّ والبحر، يفزعون إليه تضرّعا وخفية عند الشدائد، والمقرّر عندهم أنّ الذي ينجّيهم منها هو الله تعالى، الذي تركوا عبادته عند الرخاء ولهذا كان الاستفهام متضمّنا التوقيف والتوبيخ، ومما يدلّ على أنّه للتقرير جاء الجواب من الله تعالى في الآية التالية:{قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}[الأنعام:64] وقد قال ابن عادل أيضا:" الاستفهام للتقرير والتوبيخ"[11].

ثانيا: من نماذج أساليب الاستفهام بـ(ما)

قوله جلّ شأنه:{وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ}[الأعراف:48]حيث يخبر الله تعالى في هذه الآية عمّا يجري في الدار الآخرة بين أصحاب الأعراف ـ وهم رجال استوت حسناتهم وسيّئاتهم، ثمّ يدخلهم الله الجنّة بفضله ـ وبين رجال من أهل النار، يعرفهم أهل الأعراف بسيماهم وعلاماتهم، فيقولون لهم: ما ذا دفع عنكم ما كنتم تجمعون في الدنيا من المال وغيره؟ وما ذا دفع عنكم

استكباركم على المؤمنين المستضعفين؟ ولا شكّ أنّهم لم يستفيدوا من أموالهم التي كانت سبب طغيانهم واستكبارهم على المؤمنين شيئا.

فالاستفهام للتقرير والتبكيت والتوبيخ، أي أنّ أصحاب الأعراف يسألون عن رجال من أهل النار سؤال تقرير وتبكيت وتوبيخ، وقد أفاد الرازي أن الاستفهام للتبكيت والتوبيخ[12] .

وقال الله تعالى:{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}[الأنبياء:52].ذكر الله تعالى قبل هذه الآية أنّه منح إبراهيم عليه السلام رشده واهتداءه إلى الحقّ منذ صغره، وأنّه تعالى كان عالما بما يستحقّه، فبيّن في هذه الآية الرشد الذي أوتي إبراهيم عليه السلام، وذكّر المخاطب بذلك: أي اذكر أيها المخاطب وقت أن قال إبراهيم لأبيه وقومه مقرّرا إياهم بحقيقة الأصنام، ومحقّرا لشأنها، وموبّخا أولئك العبدة على إجلالهم وتعظيمهم لها:{مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}[الأنبياء:52] أي أنّ الاستفهام للتقرير بحقيقة الأصنام والتحقير لشأنها، ويتضمّن التوبيخ على إجلالها وتعظيمها؛ لأنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يعرف حقيقة تلك الأصنام التي اتخذها قومه آلهة، ولكنّه سألهم عن حقيقتها تحقيرا لها، وتوبيخا لهم بإقامتهم على إجلالها وعبادتها.

وقال الله تعالى:{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}[الحاقة:3].فهذه الآية تدلّ على هول القيامة، فقد خاطب الله تعالى نبيّه محمدا ﷺ فيها وقال له: أي شيء أدراك وأعلمك ما الحاقة؟ يعني: أنت لا تعلم كنهها وعظمها، على أنها عظيمة وشديدة جدّا بحيث لا تبلغها الأوهام ولا تقدّرها الأفهام، فكيفما قدّرت فهي أعظم من تقديرك؛ لأنها لا تدخل في حدود علم المخلوقات.

فالظاهر من السياق أنّ الاستفهام الأول للإنكار والنفي، والاستفهام الثاني للتهويل والتعظيم.

ثالثا: نماذج لأساليب الاستفهام بـ(أي)

قال الله سبحانه:{فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[الأنعام:81].أخبر الله تعالى قبل هذه الآية أنّ قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام جادلوه في شأن الله تعالى وهدّدوه بأن تصيبه آلهتهم بسوء، فردّ إبراهيم عليه السلام عليهم بكلّ اطمئنان بأنّه الموحّد الذي هداه الله للإيمان، فهو لا يخاف من تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ شيئا، وأنكر عليهم تهديدهم بالخوف منها في حين أنهم الأحقّ بالخوف من بطش الله لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزّل به عليهم سلطانا، وبعد أن أقام الحجّة عليهم قال لهم: فأيّ الفريقين: فريق الموحّدين أو فريق المشركين أحقّ بالأمن؟ إن كنتم تعلمون فأخبروني.

فالاستفهام للتقرير والتهديد، أي أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال لقومه مقرّرا ومهدّدا: إن كنتم أهل علم وبصيرة فأخبروني عن الفريق الأحقّ بالأمن من الفريقين، هل هو فريقي أو فريقكم؟ فقد جاء الجواب في الآية التالية:{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[الأنعام:82].

وقال الله تبارك تعالى:{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا }[التوبة:124]. يخبر الله تعالى في هذه الآية أنّه إذا ما أنزل سورة يقول بعض المنافقين لبعضهم الآخر: أيّكم زادته هذه السورة المنزّلة إيمانه؟ فالظاهر من السياق أنّ الاستفهام للإنكار ويتضمّن الاستخفاف بشأن السورة، أي أنّ المنافقين يقول بعضهم لبعض ذلك القول إنكارا لزيادة الإيمان، وإظهارا لعدم قدر السورة، فكأنّ قائلهم يقول: لم يزدد أحدكم إيمانا بنزول هذه السورة، وليس لها أيّ تأثير على شخص، فأجاب الله تعالى بعد ذلك بأنّ المؤمنين يزداد إيمانهم بنزول السورة، وأمّا المنافقين فيزداد نفاقهم بنزولها.

وقال الله تبارك وتعالى:{وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ}[غافر:81] ذكر الله سبحانه وتعالى قبل هذه الآية أنّه خلق الأنعام للناس، ولهم فيها منافع كثيرة كالأكل والركوب والبلوغ بها إلى الحاجات، وكذلك سخّر لهم الفلك يركبونها في الأسفار البحرية، ثمّ ذكر في هذه الآية أنّه تعالى يريكم آيات قدرته ودلائلها التي لا يبقى لمن كان له قلب يفقه بها أي تردد أو إنكار للإذعان بالله والتسليم له.

فالاستفهام للإنكار ويتضمّن توبيخ المكابرين على تكذيبهم آيات الله وكفرهم به سبحانه، أي: يريكم الله ـ أيّها الناس ـ حججه وبراهينه الظاهرة الكثيرة التي يقتنع بها كلّ عاقل، فأي آياته تنكرون؟ لا آية تستحقّ الإنكار، فلم هذا الإنكار؟!

رابعا: نماذج لأساليب الاستفهام بـ(كيف)

قال الله تعالى:{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}[المائدة:43].

هذه الآية من جملة الآيات التي نزلت في شأن اليهود، وكشفت عن خبثهم وتمالؤهم على كتاب الله التوراة، وأنّهم حرّفوا حكم الله تعالى في الزنا، فأسقطوا رجم المحصن، واصطلحوا فيما بينهم على جلد الزانيين وتحميم وجوهما وإركابهما على حمار مقلوبين ويطاف بهما، ثمّ إنهم بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة تحاكموا إليه رجاء أن يحكم بينهم بالجلد والتحميم، فيأخذوا به، لكنّ الرسول ﷺ حكم بالرجم الذي ورد في التوراة[13].

ففي هذه الآية خاطب الله تعالى نبيّه محمّدا ﷺ، وعجّبه بصنيع اليهود، و وبّخ اليهود على إعراضهم عن حكمه ﷺ بعد جعله حكما في قضيتهم، ذلك أنهم حكّموه طلبا للأخفّ والأهون، فلمّا وجدوا الحكم مخالفا لأهوائهم أعرضوا عنه، فقال الله لنبيّه: وكيف يجعلونك حكما في قضيتهم، وحكم الله فيها موجود عندهم في التوراة، ثمّ يعرضون عن حكمك، فهم ليسوا بالمؤمنين بالله ورسوله.

أي أنّ الاستفهام للتعجيب ويتضمّن توبيخ اليهود على إعراضهم عن حكم النبيّ ﷺ.

وقال الله سبحانه:{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [التوبة:7].يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين ويوقفهم على عدم عهد للمشركين عند الله وعند رسوله؛ لأنهم كفروا بالله تعالى وصدّوا المسلمين عن المسجد الحرام، فلا يكون لهم عهد يحقّ الوفاء، واستثنى منهم من عاهدهم المؤمنون عند المسجد الحرام فيوفّى عهدهم مدّة استقامتهم عليه.

فالظاهر من سياق النص الحكيم أنّ الاستفهام يفيد الاستنكار والاستبعاد ويتضمّن تحريض المؤمنين على القتال، أي يقول الله تعالى: أنّى يكون أيّها المؤمنون للمشركين عهد وذمّة عند الله وعند رسوله يوفّى لهم؟! فالواجب عليكم قتالهم حيث وجدتموهم إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، وهم كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قريش[14]، فيجب عليكم الوفاء بعهدهم والاستقامة لهم عليه ما داموا عليه مستقيمين لكم.

وقال الله تبارك وتعالى: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}[القمر:16]. فهذه الآية وردت في سياق قصّة نوح عليه السلام، فإذا رجعنا سياق الآية نجد أنّ الله تعالى ذكر قصّة نوح مختصرا، وكيف أنّه سبحانه نجّاه وأصحاب السفينة، وترك السفينة آية وعبرة لمن يتذكّر، ثمّ قال تهويلا لعذابه وإنذاره:{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}[القمر:16] فالاستفهام يفيد التهويل والتعظيم ويتضمّن تعجيب الناس من ذلك العذاب والإنذار.فهذه الآية تكرّرت في سورة القمر أربع مرّات، فجاءت في قصّة نوح على ما تقدّم بعد بيان العذاب، وفي قصّة عاد مرّتين: قبل بيان العذاب وبعده، وفي قصّة ثمود قبل بيان العذاب.

وإذا رجعنا الآية في قصّة عاد وجدنا الله تعالى يقول:{كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}[القمر:18]. ثمّ ذكر عذابه بعد هذه الآية، فالاستفهام في هذه الآية يفيد تنبيه المخاطب وحثّه على الاستماع لما يذكر له من عذاب القوم، وهذا الأسلوب أوقع في تلقّي المخاطب ما يقدّم له؛ لأنّ الاستفهام يبعثه على التيقظ وانتظار ما يقدّم له.

خامسا: نماذج لأساليب الاستفهام بـ(أنّى)

قال الله تعالى:{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا}[آل عمران:37].

يخبرنا الله تعالى في هذه الآية أنّ زكريّا عليه السلام الذي كان يتكفّل مريم عليها السلام، كلّما ذهب إلى مريم وجد عندها رزقا جديدا، وكما ذكره بعض المفسرين أنّه كان يُغلِق عليها سبعة أبواب ويخرج، ثم يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فكان يعجب مما يرى من ذلك، ويقول لها تعجبًا مما يرى:" أَنَّى لَكِ هَذَا "؟ فتقول: من عند الله "[15].

فالظاهر من سياق الآية وما ورد في قصّة مريم عليها السلام أنّ الاستفهام للاستبعاد والتعجب، ذلك أنّ زكريا عليه السلام الذي كان متكفّلا لأمورها، كان كلّما دخل عليها غرفتها وجد عندها رزقا، فقال لها استبعادا لما رآه وتعجّبا منه: يا مريم من أيّ جهة لك هذا الرزق الغريب؟! فكانت تردّ استبعاده وتعجّبه قائلة:{هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[آل عمران:37].

وقال الله سبحانه:{فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}[يونس:32].

أمر الله تعالى قبل هذه الآية نبيّه محمدا ﷺ أن يقرّر المشركين ببعض دلائل الربوبية كإعطاء الرزق و القوّة السامعة والإحياء والإماتة وتدبير أمور الكائنات، وأخبر أنّهم سيعترفون ويقولون: الله، فقال في هذه الآية: ذلكم المتّصف بالصفات التي ذكرت لكم هو ربّكم الحقّ الذي يستحق أن يفرده العبد بالعبوديّة، وينقاد لأحكامه، وماسواه ضلال وباطل، فكيف تُصرفون من الحق الذي هو توحيدُ الله إلى الضلال الذي هو الإشراكُ به وعبادةُ الأصنام، وذكر أبو السعود أنّ في إيثار صيغةِ المبنيّ للمفعول إيذانا بأن الانصرافَ من الحقّ إلى الضلال مما لايصدُر عن العاقل بإرادته وإنما يقع عند وقوعِه بالقسر من جهة صارفٍ خارجيّ[16].

فالاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجيب، ويتضمّن توبيخ المشركين على شركهم وضلالهم، أي بعد أن قرّر الله تعالى المشركين على بعض صفاته في الآية السابقة على هذه الآية، أخبر في هذه الآية ذلكم المتّصف بالصفات المتقدّمة هو الله ربّكم الحقّ الذي لا ريب فيه، فليس غير الحق إلا الضلال، فأنكر واستبعد معجّبا انصرافهم عن توحيد ربّهم إلى الإشراك به، و وبّخهم على ذلك.

وقال الله جلّ شأنه:{ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}[الفجر:23].

أخبر الله تعالى أنّه يوتى يوم القيامة بجهنّم، تأتي بها الملائكة بإذن الله، كما جاء في الحديث ـ أنّها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها[17] ـ في ذلك اليوم يتذكّر الإنسان ما أسلفه في حياته من خير أو شرّ، وما قصّر في جنب الله، لكن تلك الذكري لا تنفعه، لأنّ الوقت قد فاته، فلات الساعة ساعة مندم.

فالظاهر من سياق الآية أنّ أسلوب الاستفهام للإنكار والنفي، أي أخبر الله تعالى أنه حين يوتى بجهنّم يوم القيامة، يتذكر الإنسان في ذلك اليوم تفريطه في الدنيا، فقال: من أين له الانتفاع بالذكرى، وقد ضيّع وقتها، أي لا جدوى لها.

سادسا: نماذج لأساليب الاستفهام بـ(أين):

قوله تعالى:{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}[الأنعام:22].

يذكّر الله تعالى كلّ مخاطب بيوم مهول، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم، يوم يحشر الخلق جميعا، ثمّ يخاطب المشركين ويقول لهم: أين آلهتكم التي زعمتموها شركاء لي؟

فالظاهر من السياق أنّ الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتبكيت، أي أخبر الله تعالى أنّه في يوم الحشر يقرّر المشركين الظالمين المفترين على الله الكذب لتبكيتهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد، فيقول لهم: أين آلهتكم التي كنتم تزعمونها شركاء لله تعالى.

وقال الله سبحانه:{يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ}[القيامة:10].

أخبر الله تعالى قبل هذه الآية عن الإنسان المغرور في هذه الدنيا، الذي ينكر يوم القيامة ويسأل مستبعدا إياه:{أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ}[القيامة:6] فأخبر الله سبحانه أنّ هذا الإنسان حين يرى أهوال يوم القيامة، يقول متمنّيا: أين الفرار إلى مكان، أنج به مما أرى؟ ولكن أنّى له ذلك؟ أي إن الاستفهام يفيد التمنّي، حيث إن الإنسان المشرك في يوم القيامة سيتمنّى أن يجد مكانا للفرار ولا يجده.

سابعا: نماذج لأساليب الاستفهام بـ(متى):

قال الله تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}[البقرة:214].

يُلفت الله تعالى المؤمنين في هذه الآية إلى ما ابتلى به المسلمين السابقين وأنبياءهم من الشدائد في سبيله، فصبروا على دينه، فليعلم المؤمنون أنّهم يُبتلون بمثل تلك الابتلاءات في سبيل الله، وليصبروا عليها، والاستفهام لاستبطاء النصر واستطالة مدّة الشدّة التي بلغت أقصاها، حيث مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى قال الرسول وأتباعه، استبطاء للنصر ـ لا شكّا وارتيابا فيه ـ واستطالة لمدّة الشدّة:{مَتَى نَصْرُ اللَّهِ}؟ فجاءت بشارة الله تعالى:{أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}، أي الاستفهام للاستبطاء.

وقال الله جلّ شأنه:{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[يونس:48].فأخبر الله تعالى عن مشركي قريش أنهم لما هُدّدوا بمجيء العذاب، قالوا استعجالا له على وجه الإنكار والاستهزاء به متى هذا الوعد الذي تعدنا به يامحمّد إن كنت مع أصحابك صادقين فيه؟

فالظاهر من سياق الأسلوب أنّ الاستفهام لاستعجال العذاب على وجه الإنكار والاستهزاء.

وقد تكررت هذه الآية ستّ مرات في ستّ سور مختلفة، هذه والثانية في الأنبياء:38، والثالثة في النمل:71، والرابعة في سبأ:29، والخامسة في يس:48، والسادسة في الملك:25، وكلّها حكاية عن إنكار المشركين واستهزائهم بما وُعِدُوا به من العذاب، أو مجيء يوم القيامة، أو الحشر والجزاء، وهذا يدلّ على شدّة نكيرهم بأمور الآخرة.

ثامنا: نماذج لأساليب الاستفهام بـ(أيّان):

قال الله تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}[الأعراف:187]، فيخبر الله تعالى نبيّه محمدا ﷺ أنّ الناس يسألونه عن وقت الساعة, وأمره أن يكل علمها إلى ربّه الذي يتولّى إقامتها في وقتها، وقد ذكر المفسّرون في السائلين فرقتين: المشركون أو اليهود [18]

فإذا كان السائلون المشركين فإنّهم كانوا ينكرون القيامة، ويسألون الرسول ﷺ عنها سؤال إنكار، وإذا كان السائلون اليهود فإنهم كانوا يعلمون أنّ علم الساعة مما استأثر الله بعلمه، ويسألون الرسول ﷺ عنها سؤال امتحان واختبار.فالسؤال إذا كان من قبل المشركين فالاستفهام للإنكار للساعة، وإن كان السؤال من قبل اليهود، فإنّه للامتحان والاختبار.

وقال الله سبحانه وتعالى:{يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ}[الذاريات:12] ذكر الله تعالى قبل هذه الآية الخرّاصين الكذّابين ولعنهم لكفرهم وتكذيبهم البعث والجزاء {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ}[الذاريات:10و11]

ثمّ أخبر في هذه الآية أنهم يسألون الرسول ﷺ والمؤمنين عن يوم الدين، فيقولون تكذيبا واستهزاء: متى يكون يوم الدين و الجزاء؟ فكأنّهم يقولون: ليس هناك بعث و إحياء وجزاء قطّ.

فالظاهر من الاستفهام أنّه للتكذيب والاستهزاء بما كانوا يوعدون من البعث والمجازاة، وهو ما ذهب إليه أبوحيّان أيضا[19].

تاسعا: نماذج لأساليب الاستفهام بـ(كم):

قوله تعالى:{سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[البقرة:211].

يخاطب الله تعالى نبيّه محمدا ﷺ ويأمره أن يسأل بني إسرائيل عن المعجزات التي أتتهم على يد نبيّهم موسى عليه الصلاة السلام؛كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسلوى وغيرها من المعجزات الباهرة التي تكون حجّة على صدق نبيّه ورسالته، فلم يعتبر كثير منهم بل بدّلوا نعمة الله كفرا، فهدّد الله تعالى الذين يكفرون بنعمه بالعقاب وأنّ الله شديد العقاب.

أي:أنّ الاستفهام هنا يفيد تقرير بني إسرائيل بآيات الله، ويتضمّن تبكيتهم وتوبيخهم على عدم اعتبارهم بتلك الآيات.

وقوله تعالى:{فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}[البقرة:259]، هذا مقطع من آية طويلة أخبر الله تعالى فيها نبيّه محمدا ﷺ بما جري مع الرجل الذي استبعد البعث بعد الموت، فقال عند مروره على قرية خاوية على عروشها: أنّى يحيي الله هذه القرية بعد موتها ، فأمات الله تعالى ذلك الرجل مائة عام ثمّ بعثه، فسأله للتقرير و للتنبيه إلى ما حدث من الخوارق: كم لبثت؟ فأجاب الرجل: لبثت يوما أو بعض يوم.

فالظاهر من سياق الآية أنّ الاستفهام للتقرير، والغرض من التقرير تنبيه الرجل إلى ما حدث من خوارق الأمور التي تدلّ على أنّ إحياء الموتى أمر هيّن عند الله تعالى.

وصلى الله تعالى وسلم على نبينا وحبيبنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كثيرا.

الهوامش والمصادر:

[1]الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشاف، 1/المقدّمة /ن وس

[2]الخطّابي، أبوسليمان حمد بن محمد: بيان إعجاز القرآن الكريم، ص 23و24.

[3]جماعة من العلماء: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص55.

[4]التفتازاني، مسعود بن عمر: مختصرالمعاني المطبوع ضمن شروح التلخيص 294/2.

[5]ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب: المحرر الوجيزفي تفسير الكتاب العزيز 157/11.

[6]أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم 379/3. 16 ـ ينظر: 142/4.

[7]الفراء، يحيى بن زياد: معاني القرآن 202/1.
[8]ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير 379/3. 10 ـ 369/15.
[9]الألوسي: أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 11/13.
[10]
[11]الألوسي: أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 11/13.
[12]الرازي، محمد فخر الدين بن ضياء الدين عمر: التفسير الكبير و مفاتيح الغيب 97/14.
[13]الواحدي، علي بن أحمد: أسباب نزول القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ص188 ـ 190.
[14]السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق مركز هجر 249/7.
[15]الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 358/5.
[16]
[17]مسلم بن الحجّاج القشيري: صحيح مسلم، كتاب الجنّة وصفة...، باب شدّة نار جهنّم، رقم الحديث4228.
[18]الماوردي، علي بن محمد: النكت والعيون، تحقيق السيد بن عبدالمقصود 284/2.
[19]أبو حيّان الأندلسي، محمد بن يوسف: البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود 175/4.